حِبر أبيَض
WHITE INK

د. عبدالحق الصنايبي

فخري باشا:
شخصية دموية حاولت مسح الهوية العربية للحرم النبوي

إن دراســة تاريخ الأتراك العثمانيين في منطقتنــا العربية يجب أن تخضع لمنهجية دقيقة يتقاطع من خلالها منطق الســرد مع مســلك التحليــل لنخرج بخلاصات علمية فــي قراءتنا لتاريخ المنطقة وفق منظور علمي حرص على تســطيره القائمون على الخط التحريري لموقع "حبر أبيض" في تجاوز للســرد الكلاســيكي الجاف الذي يرنو إلى إعــادة اجترار الأحداث دونما ســعي إلى تحليلها وتفكيكها ومحاولة إسقاطها على البيئة الاستراتيجية الحالية.

في هذا السياق، ورغم أن بدايات القرن العشــرين عرفت تراجع النفوذ العثماني في العالم واستقلال أجزاء واســعة عن الدولة العثمانية، إلا أن قلب الجزيرة العربية، وخصوصا المدينة المنورة، ظلت تحت استعمار السلطنة العثمانية التي اعتبرتها آخر أوراق تثبيت شرعيتها في ظل انفصال بقية الجزيــرة العربية عن حكم الأتــراك ورجوعه إلى حاضنته العربية ممثلةً بالمملكة العربية الســعودية وقيادة المؤسس الملك عبدالعزيز.

ولعل الشخصية المركزية التي ساهمت في تنزيل الاستراتيجية العنصرية للساسة الأتراك في الحرم النبوي هي شــخصية فخري باشا، وقد قطعت مجموعة من الشهادات بأن تاريخه الدموي في المنطقة وإجرامه وإرهابه لا يقل دموية عن التاريخ الأسود للسفاحين الثلاثة داخل تركيا وخارجها.

من هذا المنطلق، ســنحاول تجاوز أســلوب ســرد الوقائع والتعويض عــن ذلك بمحاولة تحليلها وفهم سياقاتها وخلفياتها لنخلص إلى الإجابة عن الأسئلة الجوهرية التالية:

1- ما السر في تمسك العثمانيين باحتلال المدينة المنورة، وما الرمزية التي تمثلها المدينة المنورة في نظر الأتراك؟

2- ما خلفيات تهجير فخري باشا لسكان المدينة فيما عرف تاريخيًّا وإعلاميًّا ب "سفر برلك" أو التهجير القسري؟

3-كيف حاول الأتراك تغيير الهوية الثقافية والحضارية للمدينة المنورة؟

فــي هذا الإطار، ظل ســلاطين آل عثمان ينظرون إلى بلاد الحرميــن كمركز ثقل لخلافتهم المزعومــة بالنظر إلى الرمزيــة الدينية القوية لمكة والمدينة حيث ظل الحفاظ عليهما مؤشــرًا على استمرار شرعية مؤسســة "الخلافة" في بعدها السياســي والديني. هذا المعطى الاستراتيجي جعل الأتراك يســتميتون في محاولة الحفاظ على الحرمين أو على الأقل أحدهما وقمع الأصوات المطالبة بالاســتقلال تحت مبررات "الخروج عن الخلافة الإســلامية"، تارة، ومقاومة الاستعمار الإنجليزي تارة أخرى.

فخري باشا قام بإقحام المسجد النبوي في صراعه ضد العرب ليقينه بأنهم لن يجرؤوا على اســتهداف المقام النبوي، وقام باســتغلال اللاشــعور الديني لســكان المدينة المنورة في محاولة حشــدهم للدفاع عن آخر معاقل الاحتــلال العثماني، وهو ما لم يؤثر في نفــوس الأهالي الذين عانوا الويلات تحت نير الاستعمار التركي الغاشم.

هذا المعطى على الأرض، يعكس طبيعة العلاقة بين فخري باشــا وسكان المدينة، وهو ما دفع هذا الأخير إلى ارتكاب جريمة ضد الإنســانية حين لجأ إلى تهجير الســكان الأصليين من وطنهم وترحيلهم نحو باقي المناطق التي تخضع لحكم الأتراك وخاصة إســطنبول وســوريا حيث هلك أكثر هؤلاء المهجرين تحت وطأة الجوع والبرد والتعذيب.

ويقدم لنــا علي حافظ صورة مؤلمة عن دكتاتورية فخري باشــا وتجويعــه لأهالي المدينة لدفعهم إلى الهجرة فيقول "فقد اتخذوها (المدينة المنورة) قاعدة عســكرية في قلب الجزيرة العربية لحماية ممتلكاتهم وجعلوا قيادتها للقائد العســكري عمر فخري باشــا وعززوا قواتهم فيها بجيش وعتاد وملأت الأســلحة المساجد بما فيها المسجد النبوي، كما حجز فخري باشا كل ما يؤكل من تمر وأرز وحنطة وغير ذلك من مســتودعات الجيش فلا يعطى لأهل المدينة منه شيء إلا بطريق التهريب مــن الجنود وبأثمــان مرتفعة ويتعــرض كل من يعثر عليه بائعا شــيئا من ذلك لأشــد العقاب هو والمشتري" [1].

ويمكن القول أن فخري باشــا لجأ إلى عملية التهجير القســري بهدف ضرب مجموعة من العصافير بحجر واحد:

الهــدف الأول مرتبط بإكــراه توفير كميات كافيــة من المواد التموينية لجيشــه لمقاومة الحصار، والإكراه الثاني مرتبط بتفادي تشــكل نواة ثورية داخل المدينة موالية للعرب قد تعجل بنهاية احتلال آل عثمان على المدينة. أما الهدف السياســي الثالث فيكمن في المحاولات الحثيثة التي سعى من خلالها فخري باشا إلى تغيير التركيبة الديمُغرافية للمنطقة لفائدة العرق التركي.

وارتباطًــا بالنقطة الأخيرة، يــرى الزميل الكاتب محمد الســاعد في حديثــه لأحد المواقع الإلكترونية "أن هدف الأتراك من فعلتهم الشــنيعة (التهجير القسري) في ذلك الوقت، هو كسر شوكة العــرب الثائرين وتتريك أعقابهم، واســتبدالهم بعد نهاية الحرب بأتراك موالين لهم لا يخشــون من انفصالهم أو ثورتهم، على نحو ما يســمى اليوم بالتغيير الديموغرافي"[2]. ويستشهد الساعد بالنموذج الليبي حيث ترك الاســتعمار العثماني جالية تركية مهمة يتمركز معظمها في مدينة مصراتة الليبية حيث مازال البعض يشــهر ولاءه لأنقرة رغم انتمائه إلى دولة وطنية يُفترض أنها ذات ســيادة. ونفس مشــاعر الولاء نســجلها لدى الأقليات التركمانية في كل من العراق وسوريا ولبنان وحتى في الصين (الإيغور).

ولعل ما يؤكد طموح العثمانيين في تتريك ســكان المنطقة ما ذهب إليه ابراهيم بن علي العياشــي، أحد أبرز مؤرخي المدينة المنورة، في كتابه "المدينة بين الماضي والحاضر" حين قال: "حتى التعليم ومع قصوره التام حاولت تتريكه، وأذكر أن ضابطا من زملائي في الشــرطة كنت أحضره وهو يجري عملية حســابية فيقول بيش كرك بيش = يقرمي بيش، يعني خمسة في خمسة تساوي خمسا وعشــرون، إنه عربي مولدا وتربية، ولكن لا يعرف شــيئا مما درس ســوى باللغة التركية، حتى القواعد العربية من نحو وصرف كانت باللغة التركية" [3].

كان هذا تحليل لجانب من البنية السلوكية العنصرية والاستعلائية لفخري باشا كاستمرار لطبيعة الحكم التركي في المنطقة العربية، حيث جرى استنســاخ وإســقاط نفس أسلوب الحكم في جميع المناطق التي أخضعوها وحاولوا أن يمســحوا تاريخها وبناء تاريخ للأتراك على أنقاض الحضارة العربية الأصيلة.

المراجع:

1- علي حافظ، فصول من تاريخ المدينة المنورة، الطبعة الثالثة 1996م، ص 46/45.

2- راجع حديث الزميل محمد الساعد لموقع "الأندبندنت" عربية على الرابط:
https://www.independentarabia.com/node/92171

3- ابراهيم بن علي العياشــي: المدينة بين الماضي والحاضر، المكتبة العلمية للشــيخ محمد سلطان النمنكاني، المدينة المنورة 1392هـ 1972م، ص 572.